الشعر المصرى فى مائة عام :

على الليثى

للاستاذ محمد سيد كيلانى

١٨٢٢ — ١٨٩٦

— ٢ —

فى هذه الأبيات يعبر الشاعر عن إحساس داخلى مفعم بالحزن، ويترجم عن شعور صادق فياض بالأسى على ما حاق بالوطن من النكبات الجسام، ويتحسر على أيام الرخاء والصفاء، ويندب صريع الحظ والأنس الذى أقفر. ولا شك فى أننا نرى مظاهر الحسرة والألم بادية بوضوح فى قوله :

كان إقليمنا رياض صفاء فيه للواردين أعذب منهل

بساطة فى التعبير ولكن لا تكلف ولا تصنع .

وقال :

من رآه يقول توفيق مصر أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه وعشنا آمنين الخطوب لا نتململ

وهنا يذكر فترة الرخاء القصيرة التى أشرقت على البلاد قبيل جنوح الحركة العرابية إلى الطيش الذى أضر بالأمة المصرية ضرراً بليغاً. وعبارة البيت الثانى ضعيفة، ذلك لأنه قال « أمنا الزمان » ثم قال « وعشنا آمنين الخطوب » والجملتان بمعنى واحد .

وقال :

نتهادى فى ظل أسمى مليك من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا فاطرحنا الوقار والأمر أعضل

البيت الأول تامه المعنى. وفى البيت الثانى انتقل إلى لاعتذار فزعم أن الدهر قد حسد المصريين فتركوا ما طبعوا عليه من الهدوء والسكينة. وفى تعبيره بضمير المتكلم فى قوله «فاطرحنا» اعتراف صريح منه باشتراكه مع العرابيين فى حركتهم. ويظهر فى البيتين شعور الحزن والندم. ورد الحركة العرابية إلى حسد الدهر أمر لطيف واعتذار جميل. وقال :

ورأى غرنا من الحلم أمراً غره فابتغى الذى لا يحصل
وإذا المرء كان بالوهم يبنى لخيال الظنون ما قد تمثل
ويح قوم سموا لإدراك أمر دون إدراكه الجبال تزلزل

والغر هو عرابى الذى أظهر جهلا عظيما وقصر نظر فى الشؤون السياسية. ومعنى البيت تافه. والبيت الثانى جيد المعنى أراد أن يجريه مجرى الحكم. أما معنى البيت الثالث فقد ورد فى البيت الأول .

وقال :

ما أصروا عليه إلا أضروا بأناس من نابه ومغفل
ذاك يسعى على التقية خوفا وسواه يسعى لكيما يجمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء كانت الغاية الجميلة أمثل

ذكر فى البيت الأول أن العرابيين بإصرارهم على خطتهم قد ألحقوا الضرر بالناس أجمعين. وفى البيت جناس بين « أصروا » و « أضروا » وطباق بين «نابه» و «مغفل». وفى البيت الثانى يذكر أن الذين انضموا إلى العرابيين كان منهم المتطوعون المؤمنون بما يدعو إليه عرابى وزملاؤه، ومنهم المكرهون الذين أرغموا على تأييد تلك فشايعوها رهبة لا رغبة. ومعنى هذا البيت مأخوذ من الواقع لا من الخيال .

وفى البيت الثالث يقول لو أن العرابيين منذ بداية أمرهم وفقوا إلى الصواب لحدث العاقبة. وهو فى هذا يستمد من الواقع ويستوحى القول من الحقيقة المرة التى صدمت الأمة. وفى البيت الأخير نرى روحاً وطنياً سامياً. إذ نظر الشاعر إلى هزيمة العرابيين أمام الانجليز على أنها معرة لحقت بالأمة فى حين أن الشايعين للخديو والراغبين فى التزلف إليه اعتبروا هزيمة الجيش المصرى من نصر الله الذى جاءهم والفتح، وراحوا يتغنون بفوز الانجليز وبنجاح أسطولهم وجيشهم فى القضاء على العرابيين .

ثم قال :

آه من رقدة الحلوم ودهر أيقظتنا صروفه إذ تبدل
كانت الناس فى ظلال نعيم تجتنى من ثمار غصن تهدل
ما لنا لم نقم بجهد وندعو من عدا للهدى وننصح من ضل
ما لنا كلنا سوى القل منا قد سلكنا سبيل غاو مضلل
قد تساوى الغبى والمتغابى وعليم من جاهل صار أجهل

هـذه أبيات مؤثرة لأنها صادرة من أعماق الفؤاد فيها تأوه وتوجع وتحسر وتفجع وبكاء على ما أصاب الوطن وأهله . ويلوم الليثي العقلاء من المصريين لأنهم لم يسعوا في إزالة الشقة التي فصلت بين الخديو والعرابيين والتي كانت نتيجتها الوبال والخسران . وهو من غير شك صادق في شعوره، مخلص الإخلاص كله فيما يتحدث به . وفي هـذه الأبيات يعترف الشاعر بأن المصريين — سوى أقلية منهم — قد انخرطوا في سلك العرابيين وهو محق فيما يقول:

ثم قال :

قد جبنا وصاحب الجبن جان   وهو بالطبع في الأنام مرذل
لو رزقنا السداد لانسد باب   وحقنا دماء قوم تحلل
كان ياقوته المذاب مصانا   فسقينا به الثرى إذ تهيل
كم غرسنا جاهاً وجسوما   وجنينا الأسى بزلة من زل

من يقرأ هذه الأبيات ولا يذكر الدماء الغزيرة التي تلطخت بها أرض الأسكندرية والمحسمة والقصاصين والتل الكبير ؟ أجل لقد بكى الليثي بكاء الوطني على هذه الدماء التي سفكت والأرواح التي أزهقت . وناح على الأبرياء الذين قتلوا وخلفوا الأسى والحزن وقال :

يا ترى من يقوم عنا بعذر   إذ أطعنا الغواة في كل محفل
حيث حدنا عن المليك وخفنا   سطوة من عداه والقطر مقبل
حيث لا يرفع البريد شكاة   وسلوك السلوك صار معطل
حيرة أدهشت أولي اللب حتى   ما اهتدى للصواب منهم مجمل
ذاك سر القضا وليس عجيباً   أن يحار الأريب فيه فيذهل

في هذه الأبيات اعترف الليثي بأنه أطاع العرابيين ووالاهم . وعذره في ذلك الخوف وعجزه عن إيصال شكواه إلى الخديو لانقطاع الأسلاك البرقية بين مصر والاسكندرية ، وتعطل البريد . وهذا ليس بعذر. فقد كان في استطاعته أن يلحق بالخديو كما لحق غيره . وكان في قدرته أن ينزوي في ضيعته متمارضاً كما فعل بعض الناس . وهو دون ريب متكلف في هذه الأبيات يقول غير الواقع ويحاول أن يخلق لنفسه عذراً يبرر به مسلكه . وأخيراً أحال الأمر على القضاء والقدر ، وعزا اندفاعه في تأييد العرابيين إلى سر خفي من الأسرار الإلهية . وماذا كان قائلا غير هذا ؟ أجل ! لم يجد الرجل أمامه غير ما تقدم .

وقال :

غير أنا لما أفقنا أرقنا   من شؤون العيون دمعاً تسلسل
وبسطنا اللسان في ذم قوم   إن ذكرناهم نغص ونخجل
ومددنا أكف ذل لمولى   شأنه البر كم علينا تطول
آل مصر بغيره لا تلوذوا   إذ هو الملجأ الملاذ لمن ذل
يا عظيم الجناب يا خير ملك   سعده قد أباد من قد تغول

في هـذه الأبيات يذكر الليثي أنه لما انتهت الأمور بهزيمة العرابيين أفاق من أحلامه واصطدم بالواقع فبكى ندماً على ما فرط منه . وأخذ يلوم زعماء الحركة العرابية لما جنوه على أنفسهم وعلى مواطنيهم بجهلهم وقصر نظرهم ورعونتهم وطيشهم والليثي في قوله «وبسطنا اللسان ... الخ» يصور المصريين وقد تنكروا لتلك الحركة وشرعوا يتقربون من الخديو بالقدح في زعمائها. وفي البيت التالي تصوير لبعض من اتهموا بموالاة العرابيين وقد هرعوا إلى ساحة الخديو طالبين العفو والصفح . ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح الخديو فخاطب المصريين وحثهم على أن يلوذوا بجانب الخديو إذ هو خير ملاذ وأطيب ملجأ . وما أظن الليثي قصد مخاطبة المصريين الذين تسابقوا من تلقاء أنفسهم إلى ساحة الخديو رغبة أو رهبة. إنما أراد أن يظفر بالعفو فنهج نهجاً فيه إغراء للخديو بتحقيق أمنيته التي يصبو إليها . وذلك بتقريره أن الخديو هو الملجأ والملاذ لمن ذل . فهذا التقرير فيه حث وإغراء . وفي البيت الأخير يخاطب الخديو ويمدحه ويقول إن حظه الحسن قد أعان في القضاء على من شق عصا الطاعة من العرابيين. ومن الطبيعي أن يذكر الشاعر شيئاً كهذا في ذلك المقام .

وقال :

من بني والوغى أثار نخسكم   في ظلاه الحسام فالسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم   نافذاً قدر ما يصول ويجهل
واسقهم كالذي سقيناه إنا   قد شربنا من بعد بعدك حنظل

كان الخديو توفيق يرتاح لمثل هذه الأبيات . ولذلك أكثر الشعراء من تحريضه على قتل زعماء الحركة العرابية، وإهدار دمائهم . ولو ترك له الأمر لما تردد في قتلهم . وقد جاء الليثي إلى الخديو من الناحية

التى تاح إليها، وضرب على الوتر الذى يسره . وذلك لا حقداً منه على هؤلاء الزعماء بل استرضاء للخديو واستدراراً لعطفه وهو لم ير فى ذلك بأساً فمصير الزعماء كان قد تقرر . فتحريضه لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يغير من هذا المصير . وعلاوة على ما تقدم فإن الليثى فى هذه القصيدة لم يحزن على الزعماء ولم يبك على ما أصابهم إنما حزن وبكى على ما أصاب المصريين من الكوارث والخطوب التى دهمتهم من جراء قيام الحركة العرابية . أما قوله :

« واسقهم كالذى سقينا ... الخ » فظاهر فيه الكذب . وأى حنظل هذا الذى سقيه ؟ وكان فى استطاعته أن يعتزل فى ضيعته . وما قال هذا إلا ليصور للخديو أن يد العرابيين امتدت إليه بالأذى وأنه قاسى منهم الأهوال وشرب الحنظل ، فيرثى الخديو له ويعطف عليه ويقرب منه إكراماً له وتقديراً على ما أصابه من شر العرابيين .

وقال :

وافتقر ذلة لمن جر رغماً لبلاء ولا منيع يؤمل
كم مليك عفا وأنت المفدى فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من سجاياك عطفاً واجعل العفو موضع الشكر واعمل
بجدير بعهد ذات الخديوى كل فضل وليس للعذر محل

ذكر فى البيت الأول أنه أرغم على الانضواء تحت لواء الحركة العرابية . ثم أخذ بعد ذلك يلتمس العفو بعبارات فى منتهى البساطة لا غلو فيها ولا مبالغة ، ولا إمعان فى التذلل والخضوع . ثم قال :

فابق واستبق من رعاياك قوماً أملوا العفو من حياك المسبل
إن تدقق تدق أعناق ألف بل مئين من الألوف تقتل
والرعايا تضيع بين عدو وولى له الفخار المؤثل

هكذا ختم الليثى قصيدته هذه ، مستمداً ختامه من الواقع . فالذين اشتركوا فى الحركة العرابية كثيرون أو كما قال :

ما لنا كلنا سوى القل منا قد سلكنا سبيل غاو مضلل

فلو أن الخديو تشدد لقضى على حياة مئات الألوف . وقد أجاد فى الجمع بين بقاء الخديو واستبقائه لقوم من رعاياه أملوا عفوه . ووفق فى استخدام كلمة « رعايا » فى هذا المقام . وكأنه أراد أن يقول إن الذين تعفو عنهم ليسوا بأجانب إنما هم وطنيون ومن رعاياك . فإذا لم يستثمر الخديو الحلم هلكت الرعية . وكيف يبقى الراعى بغير رعية ؟ وكل هذا إغراء للخديو على ترك الغلو والمغالاة فى معاقبة من انضموا تحت لواء عرابى

***

هذه القصيدة وإن كانت ضعيفة الأسلوب ، واهية المهارة إلا أنها خير ما نظم الليثى . ذلك لأنه لم يكن فيها متكلفاً ولا متصنعاً . إنما كان معبراً عن إحساس داخلى وشعور كامن فى نفسه . وإذا قارنت هذه القصيدة بقصيدة عبد الله فكرى التى نظمها فى هذا الصدد لأدركت الفرق بين الرجلين . فالليثى بدا فى هذه القصيدة وطنياً مخلصاً . بكى على ما أصاب الوطن ، وناح وتألم وتوجع وتحسر ، وذكر الضحايا والشهداء وقرر أن هزيمة الجيش المصرى معرة كبرى لحقت بالأمة أما عبد الله فكرى فقد بكى على نفسه وشرع يستدر عطف الخديو بعبارات الشحاذين . ومثال ذلك قوله :

أيجمل فى دين المروءة أننى أكابد فى أيامك البؤس والعسرا

وقوله :

وحسبى ما قدمت من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا

(للكلام صلة) محمد سيد كيلانى

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد